خير الهدي هدي المصطفى ﷺ

١٩

أول من توقد بهم النار

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وأخرجَ (صهيبٌ) ورقةً كبيرةً ، وقالَ: لقد قرأْتُ في كتابِ المسندِ للإمامِ أحمدِ حديثاً نبويّاً رائعاً ، فنقلْتُهُ على هذه الورقةِ لأقرأَهُ لكم ، وفيهِ الفوائدُ الكثيرةُ.

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنْهُ قالَ: حدَّثَني رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَعالى إذا كانَ يومُ القيامةِ ينزِلُ إلى العبادِ ، وكلُّ أمّةٍ جاثيةٌ ، فأوّلُ من يُدعى بِهِ رجُلٌ جمعَ القرآن[1] ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ ، ورجلٌ كثيرُ المالِ.

فيقولُ اللهُ للقارئ: ألم أعلِّمْكَ ما أنزلْتُ على رسولي؟

---

(١) أي: حفظه.

قال: بلى يا ربّ.

قال: فماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟

قال: كنت أقومُ بهِ آناءَ اللَّيلِ وآناءَالنَّهارِ.

فيقولُ اللهُ لَهُ: كذبْتَ ، وتقولُ الملائكة: كذَبْتَ ، ويقولُ اللهُ لَهُ: بلْ أردْتَ أن يُقالَ فلانٌ قارئ ، فقد قيلَ ذلك.

ويؤتى بصاحبِ المالِ ، فيقولُ اللهُ: أَلَمْ أوسِّعْ عليكَ[1] حتّى لم أدعْكَ[2] تحتاجُ إلى أحدٍ؟

قالَ: بلى يا ربِّ.

قالَ: فماذا عَمِلْتَ فيما آتيتُكَ؟

---

(١) أي: ألم أكثر مالكِ.

(٢) أي: لم أتركك أبداً.

قالَ: كنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ ، وأتصَدَّقُ.

فيقولُ لَهُ: كذَبْتَ ، وتقولُ الملائكةُ لَهُ: كذبْتَ ، ويقولُ اللهُ: بَلْ أردْتَ أن يُقالَ فلانٌ جَوادٌ[1] ، وقد قيلَ ذلك.

ويُؤتى بالّذي قُتِلَ في سبيلِ اللهِ ، فيقولُ اللهُ لَهُ: فبماذا قُتِلْتَ؟

فيقولُ: أُمرِتُ بالجهادِ في سبيلِكَ فقاتَلْتُ حتَّى قُتِلْتُ.

فيقولُ اللهُ لَهُ: كذبْتَ ، وتقولُ لَهُ الملائكةُ: كذبْتَ ، ويقولُ اللهُ: بَلْ أردْتَ أن يُقالَ فلانٌ جَريءٌ[2] ، فقدْ قيلَ ذلكَ».

---

(١) أي: سخيّ كريم.

(٢) أي: شجاع بطل.

ماذا عن الرِّياء؟!

قرأتْ (روضة) هذهِ القصَّةَ، فأعجبَتْها كثيراً، فأخرجَتْ دفترَها ونقلَتْها إليهِ، وفي المساءِ قصَّتْها على أفرادِ العائلةِ، وهِيَ كما يلي:

قالَ أحدُ الصَّالحينَ: كُنْتُ ليلةً في وقتِ السَّحرِ في غرفةٍ لي على الطَّريقِ أقرأُ سورةَ طه.

فلمّا ختمْتُها غفَوتُ غفوةً، فرأيْتُ شخصاً نزلَ من السَّماءِ بيدِهِ صحيفةٌ، فنشَرها بينَ يديّ، فإذا فيها سورةُ طه، وإذا تحتَ كلِّ كلمةٍ عشرُ حَسناتٍ مثبتة إلا كلمةً واحدةً، فإنِّي رأيْتُ مكانَها محواً، ولم أرَ تحتَها شيئاً.

فقلْتُ: واللهِ لقد قرأْتُ هذهِ الكلمةَ ولا أرى ثواباً ولا أراها أثبتَتْ.

فقالَ الشَّخصُ: صَدَقْتَ ، قد قرأتَها وكتَبنْاها إلاّ أنا قد سمعْنا مُنَادِياً يُنادي مِن قبلِ العَرشِ: امحوها وأسقطوا ثوابها ، فمحَوناها.

قالَ: فبكيْتُ في مَنامي وقلْتُ: لِمَ فعلْتم ذلك؟

قالَ: مَرَّ رجلٌ فرفعْتَ بها صوتَكَ لأجلِه ، فذهبَ ثوابُها!!

فعلّقتْ (أمُّ الخيرِ) على تلكم الحكاية بقولها: قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ

وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

[النساء: ٣٨ ـ ٣٩].

وقد شبّهَ أحدُهم الطّاعاتِ للرِّياءِ والسُّمعةِ، كمثلِ رجل خرجَ إلى السّوقِ وملأ كيسَهُ حَصَا، فيقول النّاسُ: ما أملأ كيسَ هذا الرّجلِ! ولا منفعةَ لَهُ سوى مقالةُ النّاسِ، ولو أرادَ أنْ يشتريَ بهِ شيئاً لا يُعطى لَهُ شيءٌ، كذلك الّذي عَمِلَ للرّياءِ والسُّمعةِ.

﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾

ورَتَّلَ (صُهيبُ) بَعضَ الآياتِ القُرآنيَّةِ، وبِصَوتٍ عَذْبٍ وجَميلٍ:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن

دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾

[الزمر: ١١ - ١٦].

وعَلَّقَ (أبو الخَير) عَلَى ذَلكَ بِقولِهِ: مَعْنَى الإخلاصِ للهِ: أيْ أخْلَصُوا طَاعتَهُم وأعمَالَهُم الَّتي يَعمَلُونَها للهِ، فَأرَادُوهُ بِها، ولَمْ يَعْمَلُوها رِئَاءَ النَّاسِ، ولاَ عَلَى شَكٍّ مِنْهُم فِي دِينِهِم، وامْتراءٍ مِنهُم في أنَّ اللهَ مُحصٍ عَليهِم مَا عَمِلُوا، فَيُجَازي المُحْسِنَ بِإحسَانِهِ، والمُسِيءَ بِإسَاءَتِهِ، ولكِنَّهم عَمِلُوها عَلَى يَقينٍ منهُم في ثوابِ المُحسِنِ عَلَى إحسانِهِ وجَزَاءِ المُسِيءِ على إساءَتِهِ، أو يَتَفضَّلُ عليهِم رَبُّهمْ فَيَعْفُو، مُتَقَرِّبِينَ بها إلى اللهِ، مُرِيدِينَ بِها وَجْهَهُ، فَذلكَ مَعْنَى إخلاصِهِمْ للهِ دِينهم.

وقَدْ جَاءَ في كُتُبِ التَّفاسِيرِ:

إنَّ إخلاصَ الدِّينِ للهِ هُو أنْ يَتوجَّهَ الإنسانُ بِدينهِ إلى ربِّه وَحْدَهُ، لا يَدعُو من دُونِه أحَداً، ولاَ يَدْعُو مَعَه أحَداً، لاَ لِكشفِ ضُرٍّ ولا لِجَلْبِ نَفْعٍ، ولاَ يتَّخِذُ منْ دُونِهِ أَولِياءَ، يَجْعلُهم وُسَطَاءَ عِندَهُ، بلْ يَكونُ كُلُّ مَا يتعلَّقُ بالدِّينِ والعِبادَةِ خالِصاً لَهُ وَحدَهُ، لاَ تَتَوجَّهُ النَّفسُ إلى غَيرِهِ، ولاَ يُستَعانُ بِمنْ عَدَاهُ.

ولاَ بُدَّ أنْ يَكُونَ الإخلاصُ في كُلِّ الأَعمالِ، مِصداقُ ذَلكَ قَولُ اللهِ تَعالى:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

[الأعراف: ٢٩].

أي: أَعْطُوا تَوَجُّهَكُم إلى اللهِ تَعالَى عندَ كُلِّ مَسجِدٍ تَعْبُدونَهُ فِيهِ حَقَّهُ مِنْ صِحَّةِ النِّيَّةِ

وحُضُورِ القَلبِ وصَرفِ الشَّواغِلِ ، سَواءً كانتِ العِبَادَةُ طَوَافاً أوْ صَلاَةً أوْ ذِكْرَاً أو فِكْرَاً ، وادْعُوهُ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وذَلكَ بِأنْ لا تَشُوبُوا دُعاءَكُم ولا غَيرَه من عِبادتِكُم لَهُ بِأدْنَى شَائِبةٍ مِنَ الشِّركِ الأكبرِ ، وهُو التَّوجُّهُ إلى غَيرِهِ مِنْ عِبَادِهِ المُكرَمِينَ ، كالمَلائِكَةِ والرُّسُلِ الصَّالِحِينَ ، وهو الشِّركُ الأصْغَرُ ، وهُوَ الرِّيَاءُ وحُبُّ اطِّلاعِ النَّاسِ عَلَى عِبَادَتِكُم ، والثَّناءِ عَلَيكُم ، والتَّنوِيهِ بذِكْرِكُمْ فِيها ، وكانُوا يتَوجَّهُونَ إلى غَيرِهِ زَاعِمينَ أنَّ المُذنِبَ لا يَليقُ بهِ أنْ يُقبلَ عَلى اللهِ وَحدَهُ ويُقيمَ وَجهَهُ لَهُ حَنيفاً ، بَلْ لاَ بُدَّ أنْ يتَوسَّلَ إليهِ بأحدٍ منْ عِبادِهِ الطَّاهِرِين المُكْرَمِينَ ، لِيشْفَعَ لَهُمْ عِندَهُ ، ويُقَرِّبَهم إليهِ زُلفَى ، وهَذَا مِنْ وساوِسِ الشَّيطَانِ....

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

فقَالَ(صُهيبُ): ولِذلكَ نَسبَ القُرآنُ الكَريمُ صِفَةَ الإخلاصِ لأنبياءِ اللهِ ورُسلهِ وأصْفيائِهِ، كَمَا قالَ عنْ كَليم اللهِ مُوسَى عليه السَّلامُ:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١].

أي: الَّذي وَحَّدَ اللهَ، وجَعَلَ نَفسَهُ خَالِصةً في طَاعةِ اللهِ غَيْرَ دَنِسَةٍ.

وقَالَ عَنْ نَماذِجَ مِنْ أنْبِيَائِهِ:

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

أي: اخْتَرنَاهُم واصْطفَيْنَاهُم، والخَالِصَةُ

هِيَ الخِلَّةُ والصِّفَةُ، أي: اصْطَفَيناهم بِسببِ خِلَّةٍ فِيهم، هِي تَذْكِيرُهُم بِالدَّارِ الآخِرةِ، وذَلكَ شأنُ الأنبياءِ.

وذكَر اللهُ تَعالى شَيئاً رَائِعاً يُحِبُّه كُلُّ مُؤمِنٍ، وهُوَ أنَّ الشَّيطَان لاَ يستطيعُ أنْ يُسَيطِرَ عَلَى المُخلِصِينَ مِنْ عِبادِه تَبارَكَ وتَعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

[الحجر: ٣٩ ـ ٤٤].

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾

فَقَال (أبُو الخَيرِ): وقَدْ ضَربَ الرَّسُولُ ﷺ

أمْثِلةً عَلى الَّذين لا يَعمَلُون إلاَّ للرِّياءِ والسُّمعَةِ، ولاَ يُخلِصُون العَمَلَ للهِ وَحدَهُ، وذَلكَ بِأنْ ذَكَرَ حَالَ الَّذي يُقاتِلُ ويَستَشْهِدُ، وحَالَ الَّذي يُنفِقُ المَالَ، وحَالَ الذي أُوتِيَ العِلمَ...، ثُمَّ بَيَّنَ مَآلَ أعمالِهم، إذ كَانُوا يَتَّبِعُونَ بِها مُراءاةَ النَّاسِ.

وبِالتَّالِي فَفِي القُرْآنِ تَوجِيهاتٌ كَثِيرةٌ، وكُلُّها تَدُورُ حَولَ أنْ يَبتَغِيَ الإنسانُ مِنْ قَولِهِ وعَمَلِهِ وجْهَ اللهِ تَعالَى، كَمَا في قولِهِ تَعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[الأنعام: ٥٢].

ويُؤكِّدُ هَذَا المَعْنى في آيةٍ أُخرَى:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ

ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾

[الروم: ٣٨ - ٣٩].

وَهَكَذا ، فالإنفاقُ والعِلمُ والعَملُ والقِتالُ كُلُّ ذَلكَ إنْ كَانَ لِوجْهِ اللهِ ، وَصلَ الإنسانُ إلى نَتائجَ رائعةٍ ، كَالفَلاحِ ، والفَوْزِ بِمُضَاعفَةِ الثَّوابِ والجَزَاءِ ، وتَحقيقِ الرِّضَا مِنَ اللهِ ، والفَوزِ بعُقْبَى الدَّارِ...

قَالَ اللهُ تَعالى في وَصْفِ المُخْلِصِينَ:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾

[الإنسان: ٨ - ٩].

وقَالَ النَّبيُّ صَلَواتُ اللهِ عَلَيهِ: «لاَ يُقْبَلُ مِنَ العَملِ إلاَّ مَا كَانَ خَالِصاً ، وابْتُغِيَ بِهِ وَجْهَهُ».

نَسألُ اللهَ تَعالى أنْ يَجعلَ أقْوَالَنَا وأعْمَالَنَا

خَالِصَةً لِوجْهِهِ الكَرِيمِ ، عَسَى أنْ نَسمَعَ تِلكُمُ الهَمْسَةَ الرُّوحِيَّةَ:

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وآخِرُ دَعوانا أن الحَمدُ للهِ ربِّ العَالمين